الفَلَق في إعجاز استهلال القرآن بسورة العَلَق

د. صهيب محمود السقار *

ملخص البحث :

إن عجائب القرآن ووجوه حُسْنِه لا تبلى على مر الإعصار . فكلما تدبر المتدبرون فُتِّحت لهم أبواب وازينت لهم كنوز وأسرار. وقد تدبرت في براعة استهلال القرآن وافتتاح تنزيله بسورة العلق.

فانكشفت لي وجوه من هذا الحسن بينتها في نقاط .

اقتران التكليف الرباني بالعون والوعد بالرعاية والنصر والتأييد .

إحاطتها ببدايات قصة الخلق ونهايتها.

اشتمالها على الإشارة إلى أصل النبوات والرسالات .

اشتمالها على تفهيم رسالة الإسلام .

من حسن الاستهلال أنه إجمال متشابه مع أوائل ما نزل من السور .

تناسب الآيات في سورة العلق .

فائدة ونتيجة مستخلصة من هذا التدبر في براعة الاستهلال:

إن من يتدبر الاستهلال بسورة العلق لا بد أن يجد لكل حكم من أحكام هذا الدين تعلقاً بأصل نزول القرآن واستهلاله. بل نقول إن العقائد والعبادات والأخلاق التي دعا إليها الإسلام لا بد أن تعود إلى استهلالها بسورة العلق. بل الكون وما فيه متعلق بالحقيقة العظمى فيه أنه لا إله إلا الله الذي تفرد بخَلْقِه وتدبيره وهو سبحانه الذي تفرد باستحقاق عبادته وطاعته والسجود له. وهذا مضمون سورة العلق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (7) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (8) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (10) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (11) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (12) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (13) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (14) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (15) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (16) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (18) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) .

* قسم الدراسات الإسلامية - جامعة بنغازي

مقدمة وتمهيد:

الحمد لله الذي أنزل الكتاب فيه آيات بينات. والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للكائنات سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن براعة الاستهلال فنٌّ معروف عند أرباب البيان. بهذا الفن يستولي صاحب الخطاب على الأسماع التي جُبلت على الشرود والتفلت من عقالها، فمن ملك زمامها في صدر خطابه وطالعة كتابه أناخت له حتى يفصم عنها وقد وعتْ.

ولا يتمكن صاحب خطاب ولا مصنف كتاب من براعة الاستهلال حتى يحيط بموضوعه ويجمع شتات مقاصده ويُجْمِل مراده في بدايات الخطاب أو الكتاب من غير تفصيل ولا تطويل. يُشرف بالمخاطب على البدايات ويَستشرف معه النهايات، ولا بد أن يُمهِّد ويُعَرِّف ويَقْتصد ويَخْتصر. وأن يَجْمع التعبير بالإشارة والتلميح إلى التعبير بالنص والتصريح .

وقد بسط العلماء من سلفنا وأكابرنا القول في براعة استهلال سور القرآن[1]. وأتى المفسرون في ذلك بالنفائس والدرر في أسرار افتتاح السور. ومعلوم أن عجائب القرآن ووجوه حُسْنِه لا تبلى على مر الإعصار. فكلما تدبر المتدبرون فُتِّحت لهم أبواب وازينت لهم كنوز وأسرار. فحقٌ على كل طالب عِلْم أن يجتهد في طلب كنوز القرآن وعجائبه التي لا تنقضي. وإذا كان المفسرون قد كشفوا من براعة الاستهلال في افتتاح سور القرآن فلم لا تُستكشف براعة استهلال القرآن وافتتاح تنزيله بسورة العلق.

لقد كان نزول الوحي بهذه السورة الكريمة حدثاً كونياً له ما قبله وما بعده في تاريخ الكون كله.

يتوسط هذا الحدث في قلب التاريخ بين ماض عتيق ومستقبل بعيد. واتصل فيه الوحي بين الخالق والمخلوق، فيه نزل الخبر من اللوح المحفوظ والرق المنشور إلى الغار المبرور. في ليلة مباركة وشهر مبارك استفتح الله تعالى تنزيل الكتاب المبارك. قال الله تعالى (حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ* إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ* فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيم) (سورة الدخان 1-4)

[1] انظر البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي(المتوفى: 794هـ) 164/1. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الطبعة: الأولى، 1376 هـ - 1957 م.

وقال تعالى في هذه الليلة تعظيماً وتشريفاً وتنبيهاً (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ) (سورة القدر 1-2) وقد دعا الله أولي الألباب ليتدبروا آيات هذا الكتاب المبارك فقال تعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)(سورة ص 29)

وبالجملة فقد اجتمع من البركة ما يدعو إلى الرجوع إلى تدبر ما نزل فيها من الكتاب المبارك.

ومن تمام البركة أن لا يَصْدُر الوارد إلا بما يرتوي به ويرتضيه. فإن كان صواباً فمن الكريم سبحانه وإن كان غير ذلك فمِن تَعَجُّلِه في تدبره ألقى الشيطان في أمنيته. فالقرآن لا ينثر كنوزه على المارين على تلك الكنوز مرور الكرام بل يخفيها تحت ستر وخباء لا ينجلي إلا لناظر طامع يرتد بصره إلى مطلوبه ومراده. وقد صدرتُ عن تدبري في سورة العلق وارتويتُ بوجوه من الحسن في براعة استهلال نزول القرآن بهذه السورة المباركة. وانكشفتْ لي وجوه مخدَّرة أودع الله فيها جمالاً في إجمال رسالة الإسلام، واقترانِ التكليف فيها بالعون الإلهي والوعد بالنصر والتأييد، وإحاطتِها ببدايات الشأن والخلق ونهايته. ونحو ذلك من الوجوه التي يُستحسن عرضها في نقاط.

أولاً: اقتران التكليف الرباني بالعون والوعد بالرعاية والنصر والتأييد

حتى ندرك هذا الوجه من جمال الاستهلال يجب أن نضع في الحسبان ثقل الرسالة التي سيتحملها النبي ﷺ وهو يتحنث في غار حراء.[1] سيكلف بأعظم مهمة في الكون. قال الله تعالى (إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً)(سورة المزمل 5) سيُبعث إلى الناس برسالة خالدة إلى قيام الساعة وهو الذي نشأ يتيماً وبعث أمياً في أميين في واد غير ذي زرع. فكيف لهذه الظروف والصفات أن تعين على حمل رسالة تعم الأرض من شرقها إلى غربها. يقول ﷺ (كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ).[2] إن استهلال القول الثقيل والتكليف العظيم لا بد أن يقترن به الوعد بالنصر والعون والتأييد. ويأتي هذا الوعد مع التكليف في قوله (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ). اقرأ مستعيناً بمن شأنه تدبير أمرك. ولك أن تقدر التطمين الذي يُحدثه تخصيص إضافة الربوبية

[1] روى الإمام البخاري بسنده عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: (كان أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء فكان يلحق بغار حراء فيتحنث فيه - قال والتحنث التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود بمثلها حتى فَجِئَه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما أنا بقارئ) . قال (فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ قلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ قلت ما أنا بقارىء فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال " اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم" . الآيات إلى قوله " علم الإنسان ما لم يعلم ") . فرجع بها رسول الله صلى الله عليه و سلم ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال (زملوني زملوني) . فزملوه حتى ذهب عنه الروع . قال لخديجة (أي خديجة ما لي لقد خشيت على نفسي) . فأخبرها الخبر قالت خديجة كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا فوالله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق...). الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري. 3/1 تحقيق : د. مصطفى ديب البغا .الطبعة الثالثة ، 1407 – 1987.

[2] رواه الإمام مسلم في صحيحه المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ) 370/1 تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي - بيروت

إلى النبي المخاطب ﷺ. ولك أن تقدر كم يزداد هذا التطمين بتكرار تخصيص إضافة الربوبية إلى المكلف في قوله تعالى: (اقرأ وربك الأكرم). ولا يفوتك أن ذكر الربوبية التي تتضمن الوعد بالرعاية والتأييد يتجدد اقترانها بالتكليف مع إعادة الأمر في قوله (اقرأ).

وانظر إلى التذكير بكمال قدرة من يَعِد بالعون وهو الخالق الذي لا تخفى قدرته على ناظر في ملكوته ومخلوقاته في السماء والأرض. فما أجمل استهلال التكليف باقترانه بالاستعانة بالرب سبحانه. والعون من شأن الرب مع العبد. وكم سيجد النبي المكلف من جمال الاستهلال وكمال الوعد بالعون وهو يوحى إليه تخصيص إضافة الربوبية إليه في هذا الخطاب.

ثم تدبر جمال التناسب في التذكير بخلق الإنسان من علق. فليس في هذا الموضع أنه خلق الإنسان من تراب أو طين. إن الرسول ﷺ ورسالته في هذه اللحظات في الغار كمثل علقة في الأرحام تفتقر إلى الخالق سبحانه ولا تستقل بوجود ولا سبب. فانظر إلى كمال هذا التطمين بالرعاية ممن تولى خلق الإنسان لما كان في مثل هذا الافتقار في بداية النشأة والتكوين. ثم انظر إلى الفرق بين التراب والطين ولفظ العلق الذي يوحي إلى المخاطب بالتعلق بالخالق سبحانه.

وفي السياق بعده ما لا يخفى حسن الاستهلال به واقتران التكليف به من وعد الله ووعيده وزبانيته.

فلا نطيل في ظاهر تكفي فيه الإشارة وتغني عن التطويل في العبارة.

ثانياً: إحاطتها ببدايات قصة الخلق ونهايتها.

قصة حياة الإنسان في الأرض تبدأ بخلقه وتنتهي برجوعه إلى ربه. ومن براعة الاستهلال هنا تذكير القرآن ببداية خَلْق الإنسان من عَلَقٍ مع التذكير بنهاية حياته الأرضية بالرجوع إلى الله (إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى)(سورة العلق8).

ومن جمال علاقة القرآن بالحياة أن أول ما نزل منه يتطابق مع بداية قصة حياة الإنسان وأن آخر ما نزل منه يتطابق مع النهاية أيضاً. فالقرآن الذي استفتح في تنزيله ذِكْر بداية خلق الإنسان اكتمل نزوله بتذكر الخلق برجوعهم إلى الله. في قوله تعالى: { وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ} (سورة البقرة 281)

قال ابن كثير في تفسيره: (وقد روي أن هذه الآية آخرُ آية نزلت من القرآن العظيم... عن سعيد بن جبير، قال: آخر ما نزل من القرآن كله "وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ" وعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية تسع ليال، ثم مات يوم الاثنين، لليلتين خلتا من ربيع الأول....) [1]

فما أجمل الاستهلال إذا أحاط بالبداية والنهاية.

ويزداد الجمال حسناً بما بين ترتيب القرآن في المصحف وقصة الكون من تناسب وتطابق.

ارجع إلى البدايتين في المصحف والكون تقف على هذا التطابق الجميل.

ارجع أولاً إلى بداية قصة حياة الجنس البشري في الخلق والتكوين. تبدأ القصة بخلق آدم وحواء عليهما السلام وما تبع هذا الخلق من تكريم وتكليف وما ترتب على ذلك من حُكْم الله وأَمْرِه بالهبوط إلى الأرض دار الامتحان ومستقر البشرية إلى حين. تجد هذه القصة في أول ترتيب المصحف.

إنها أول حلقة من حلقات قصة الكون وما فيه من مخلوقات في الأرض أو السماء. وكل حادثة في تاريخ الأرض ماضيها وحاضرها ومستقبلها لا بد أن يتصل بهذه الحلقة الأولى التي قال الله فيها في مطلع سورة البقرة. (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (سورة البقرة30)

إلى هذه الحلقة من مسلسل الوجود ترتد كل حادثة في الماضي والحاضر والمستقبل. ومن تلك الحوادث نزول جبريل عليه السلام بالوحي في غار حراء. وهذا الارتباط سينكشف في النقطة الآتية.

ثالثاً: اشتمالها على الإشارة إلى أصل النبوات والرسالات

من الجمال في الاستهلال أن يتصل أول تنزيل قرآني بأول نزول آدمي إلى الأرض.

فالصلة بين التنزيل في هذه الليلة المباركة وذلك النزول ظاهرة لمن تدبر القرآن ورجع إلى تاريخ البشرية على الأرض. لما أمر الله آدم عليه السلام بالهبوط إلى الأرض دار

[1] انظر تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ) 720/1 . تحقق: سامي بن محمد سلامة. دار طيبة الطبعة: الثانية 1420هـ - 1999 م.

الامتحان وعداوة الشيطان. ومع الحكم الذي أمر فيه الله بالهبوط إلى الأرض وعد الله الإنسان المكرم بالهدى الرباني.

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(سورة البقرة 38)(قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) (سورة طه 124)

وما كان هذا القرآن بدعاً من هدى الله ووحيه إلى البشرية. قال تعالى: (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ) (سورة الأحقاف 9) وروى الإمام البخاري بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ « إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ ، إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ ، وَيَقُولُونَ هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ قَالَ فَأَنَا اللَّبِنَةُ ، وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ »[1]

ومن جمال البناء أن تتراصف لبناته باتصال منزه عن الخلل والانفصال. وقد نص الله على وصف القرآن بأنه هدى للناس فقال تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ) (سورة البقرة 185) وفي علاقة هذا الهدى بما سبق وتقدم من الكتب السماوية يقول الله تعالى (نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ* مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ) (سورة آل عمران 3-4)

فما أجمل الاستهلال بالإشارة إلى الهدى في قوله تعالى (أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى) (سورة العلق 11-12) ويزداد الجمال حسناً بتناسب أول ما نزل مع أول ما يُقرأ في ترتيب المصحف. انظر إلى ذلك الحسن والتشابه في قول الله تعالى (أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى) وقوله (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ). (سورة البقرة 2)

فما أجمل التطابق في هذين الاستهلالين. استهلالِ النزول المبارك واستهلالِ القراءة من المصحف الشريف.

[1] صحيح البخاري 1300/3

رابعاً: اشتمالها على تفهيم رسالة الإسلام

في أول كلمة من هذا التنزيل المبارك استفتح الله الإعجاز. من كلمة (اقرأ) طلعت أنوار براعة الاستهلال المعجز. فالجمال في الاستهلال يقتضي جَمْعَ المراد والمعاني على الإجمال.

وكلمة (اقرأ) تدل في اشتقاقها على الجمع والضم. قال الراغب: (قال بعض العلماء: تسمية هذا الكتاب قرآنا من بين كتب الله لكونه جامعاً لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم كما أشار تعالى إليه بقوله: (وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ)(سورة يوسف 111) [1] وقال في الصحاح (وقَرَأتُ الشيء قرآنا: جمعته وضممت بعضه إلى بعض...ومنه سُمِّي القرآن. وقال أبو عبيدة: سُمِّي القرآن لأنه يجمع السُّوَرَ فيضمها).[2]

فمن براعة الاستهلال أن يأمر الله بالقراءة من فجأة[3] الوحي وهو في الغار- ﷺ-.

ومن وجه ثان يحسن الاستهلال بالأمر بالقراءة لأن القرآن إنما سُمِّي قرآناً لأنه يجمع السُّوَرَ فيضمها. وهذه السورة جمعت وضمت معاني التنزيل ورسالة الإسلام. وجمعت البداية بخلق الإنسان مع النهاية بالرجعى، وما بين الخلق والرجعى لا بد من الصراع بين الحق والباطل، بين الرسالة والطغيان، بين الضلالة والهدى، بين من يأمر بالتقوى ومن ينهى عبدا إذا صلى.

ومن أول تنزل في الغار بان المكتوب من عنوانه بل بان المقروء من إهلاله. استهل الوحي والقرآن بالنهي عن طاعة من يطغى وينهى عبدا إذا صلى. تأمل كيف تكررت أدوات الردع والزجر والنهي في قوله تعالى (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) (كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ)[4] (كلا لا تطعه واسجد واقترب).

---

[1] المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: 502هـ) 669 . تحقيق: صفوان عدنان الداودي. دار القلم، بيروت الطبعة: الأولى - 1412 هـ.

[2] تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: 393هـ) 65/1. تحقيق: احمد عبد الغفور عطار. بيروت الطبعة: الرابعة 1407 هـ - 1987 م

[3] قال النووي: (وَيُقَال فَجِئَهُ بِكَسْرِ الْجِيمِ وَبَعْدهَا هَمْزَة مَفْتُوحَة، أَيْ جَاءَهُ الْوَحْي بَغْتَة فَإِنَّهُ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ مُتَوَقِّعًا لِلْوَحْيِ . ، وَيُقَال : (فَجَأَهُ) بِفَتْحِ الْجِيم وَالْهَمْزَة لُغَتَانِ مَشْهُورَتَانِ حَكَاهُمَا الْجَوْهَرِيّ وَغَيْره) بتصرف يسير، انظر المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: 676هـ) 199/2. دار إحياء التراث العربي – بيروت. الطبعة: الثانية، 1392 .

[4] قال ابن كثير في تفسيره 438/8 (...نزلت في أبي جهل، لعنه الله، توعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصلاة عند البيت، فوعظه الله تعالى بالتي هي أحسن أولا فقال: " أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى " أي: فما ظنك إن كان هذا الذي تنهاه على الطريق المستقيمة في فعله، أو " أَمَرَ بِالتَّقْوَى " بقوله، وأنت تزجره وتتوعده على صلاته؛ ولهذا قال: " أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى " أي: أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ويسمع كلامه، وسيجازيه على فعله أتم الجزاء. ثم قال تعالى متوعدًا ومتهددًا: " كَلا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ " أي: لئن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق والعناد " لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ " أي: لنَسمَنَّها سواداً يوم القيامة. ثم قال: " نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ " يعني: ناصية أبي جهل كاذبة في مقالها خاطئة في فعَالها. " فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ " أي: قومه وعشيرته، أي: ليدعهم يستنصر بهم، " سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ " وهم ملائكة العذاب، حتى يعلم من يغلبُ: أحزبُنا أو حزبه.)

ثم انظر إلى جمال التناسب بين هذا النهي والزجر والمكان الذي أنزل فيه القرآن.

وحتى نقف على جمال هذا التناسب لا بد أن نرسل النظر إلى الصورتين معاً. صورة الحال التي انقطع فيها الوحي الرباني قبل استئنافه في الصورة الثانية التي نزل فيها القرآن على نبينا ﷺ وهو يتحنث في الغار.

فمن المعلوم أن الوحي قد انقطع عن البشرية برفعِ عيسى عليه السلام. واشتد بعدها الطغيان في الأرض حتى عدل العباد بالدين عن الحياة إلى الرهبانية والعزلة في الكهوف.

تدبر كيف أجمل الله الكتب السماوية والرسالات بقوله (... ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ[1] فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) (سورة الحديد27)

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية: (يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً، عليه السلام، لم يرسل بعده رسولاً ولا نبيًّا إلا من ذريته، وكذلك إبراهيم، عليه السلام، خليل الرحمن، لم ينزل من السماء كتاباً ولا أرسل رسولاً ولا أوحى إلى بشر من بعده، إلا وهو من سلالته كما قال في الآية الأخرى: "وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ" (سورة الحديد 26) يعني حتى كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم الذي بشر من بعده بمحمد، صلوات الله وسلامه عليهما؛ ولهذا قال تعالى: " ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ")[2]

يخبرنا القرآن عن حال النصارى الذين تنزل عليهم آخر وحي رباني سابق. ابتدعوا رهبانية ما كتبها الله عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها. ولما اشتد الطغيان عدلوا بالدين إلى الرهبانية.

1قال الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب ،أبو عبد الله محمد بن عمر الملقب بفخر الدين الرازي(المتوفى: 606هـ) 474/29. دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثالثة - 1420 هـ

(أما قوله : " إلاَّ ابتغاء رضوان الله " ففيه قولان : أحدهما : أنه استثناء منقطع . أي ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله الثاني : أنه استثناء متصل ، والمعنى أنا ما تعبدناهم بها إلا على وجه ابتغاء مرضاة الله تعالى...)

أما قوله تعالى : " فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الذين ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مّنْهُمْ فاسقون " ففيه أقوال : أحدها : أن هؤلاء الذين ابتدعوا هذه الرهبانية ما رعوها حق رعايتها ، بل ضموا إليها التثليث والاتحاد ، وأقام أناس منهم على دين عيسى حتى أدركوا محمداً عليه الصلاة والسلام فآمنوا به فهو قوله : " فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون " ، وثانيها : أنا ما كتبنا عليهم تلك الرهبانية إلا ليتوسلوا بها إلى مرضاة الله تعالى ، ثم إنهم أتوا بتلك الأفعال ، لكن لا لهذا الوجه ، بل لوجه آخر ، وهو طلب الدنيا والرياء والسمعة ...)

[2] تفسير القرآن العظيم 275/6

روى الطبري بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم: "اخْتَلَفَ مَنْ كانَ قَبْلَنا على إحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، نَجا مِنْهُمْ ثَلاثُ وَهَلَكَ سائِرُهُمْ: فِرْقَةٌ مِنَ الثَّلاثِ وَازَتِ المُلُوكَ وَقاتَلَتْهُمْ على دِينِ اللهِ ودِينِ عيسَى ابنِ مَرْيَمَ صَلَواتُ اللهِ عَلَيْهِ، فَقَتَلَتْهُمُ المُلُوكُ؛ وَفِرْقَةٌ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ طاقَةٌ بِمُوَازَاة المُلُوكِ، فأقامُوا بَينَ ظَهْرَانِيْ قَوْمَهِمْ يَدْعُونَهُمْ إلى دِينِ اللهِ ودِينِ عيسى ابن مَرْيم صَلَواتُ اللهُ عَلَيْه، فَقَتَلَتْهُمُ المُلُوكُ، وَنَشَرَتَهُمْ بالمَناشِير؛ وَفِرْقَةٌ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ طاقَةٌ بِمُوَازَاةِ المُلُوكِ، وَلا بالمُقام بَينَ ظَهْرَانَيْ قَوْمِهِمْ يَدْعُونَهُمْ إلى دينِ اللهِ ودِينِ عيسَى صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ، فَلَحِقُوا بالبَرَارِي والجبالِ، فَتَرَهَّبُوا فيها، فَهُوَ قَوْل اللهِ عَزَّ وَجَلَّ (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ)[1]

ونستحضر في هذا الموضع الحال الذي تُركت عليه البشرية في آخر وحي رباني سابق. من شدة طغيان الجبابرة والملوك لم تطق الفرقة الباقية من أهل الكتاب القيام بالقسط فلحقت بالجبال فتعبدت وترهبت. حتى إذا انقطع محمد ﷺ إلى غار يتعبد فيه أتاه الملك لينسخ الرهبانية ويعلن رسالة الإسلام. فأيُّ استهلال ولفتة أبدع من عودة الوحي إلى الغار. إلى الغار بعد انقطاع من بقي من أهل الكتاب إلى الجبال. في الغار الذي يخلو فيه المتعبد بعيدا عن الناس وُلدت رسالة الإسلام من جديد. وفي الغار يتجدد الوعيد الرباني الذي يتهدد من يطغى وينهى عبدا إذا صلى. ويتجدد الأمر الرباني لنبي الله (كلا لا تطعه واسجد واقترب).

ثم قارن بين السبيل الذي ابتدعه النصارى في طلب رضوان الله وما شرعه الله لهذه الأمة في طلب الرضوان. بالرهبانية ابتغى من قبلنا رضوان الله أما في رسالة الإسلام فقد جعل الله الرضوان وعداً لمن جاهد في سبيل الله. قال تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) (سورة التوبة 19-22)

وقال تعالى: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ* فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ) (سورة آل عمران173-174)

وقال تعالى : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ

[1] انظر جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري[224 - 310 هـ] 205/23 تحقيق أحمد محمد شاكر. مؤسسة الرسالة الطبعة : الأولى ، 1420 هـ - 2000 م.

كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (سورة الفتح 29)

ومرة أخرى نقول إن هذا الجمال يزداد حسناً إذا لاحظنا تناسب أول ما نزل مع أول ما يُقرأ في ترتيب المصحف. احفظ الحديث عن الطغيان والمكذبين أولي النعمة. ثم ارجع إلى استهلال القرآن في سورة البقرة. انظر إلى ذلك الحسن والتشابه في قول الله تعالى (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) (سورة البقرة 30). فما أجمل التشابه في هذين الاستهلالين. استهلالِ النزول المبارك واستهلالِ القراءة من المصحف الشريف. ومما يزيد ذلك جمالاً أنه يطابق استهلال قصة الكون باستخلاف بني آدم عليه السلام.

خامساً: من حسن الاستهلال أنه إجمال متشابه مع ما سيأتي من تفصيله:

ما أجمل ما يحصل من لذة الثمر بعد طول النظر. وما أجمل إدراك وجوه التشابه بين متعددات يحسبها الواهم مختلفات. ومعلوم أن طلب إدراك التشابه يقتضي ترديد النظر بين المتعددات والمثاني. وأن إدراك التشابه في المحسوسات جميل وأن إدراكه في المعاني أجمل.

ومن ذلك الجمال أن الاستهلال بسورة العلق تنزَّل متشابهاً مع ما تتابع من تنزيل القرآن بعدها.

يدرك ذلك من يرسل النظر إلى سورة العلق وما تنزَّل بعدها من أوائل السور. ومعلوم أن سور المدثر والقلم والمزمل من أوائل ما نزل.[1] وفيها من التشابه مع سورة العلق ما يقتضي الكشف عنه من وجوه

الوجه الأول تشابه الوعد برعاية الله:

سبق أن بيَّنا ما في سورة العلق من الوعد الرباني بالعون والوعد بالرعاية والنصر.

ونستحضر هنا وعد الله ووعيده بدعوة الزبانية والسفع بناصية الطاغية، ثم نتدبر تفصيله في ما سيتنزل بعد ذلك من أوائل السور . انظر إلى ذلك الحسن والتشابه وتأكيد وعد الله ووعيده في قوله تعالى (ذرني ومن خلقت وحيدا) (سورة المدثر 11)وقوله تعالى (وذرني والمكذبين أولي النعمة) (سورة المزمل 11) وقوله (فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ* أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ* أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ*

[1] انظر الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ) 91/1. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الطبعة: 1394هـ/ 1974 م

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ* لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (سورة القلم 44-49)

وقد قدمنا أن ذِكْرَ العلق فيه إشارةٌ إلى كمال الرعاية الربانية الموعودة. ثم ذكَّر الله نبيه ﷺ في آخر سورة القلم بصاحب الحوت الذي التقمه الحوت وغيَّبه في بطنه إشارة إلى كمال رعاية الله الذي يخلق من علق وينجي من غَلَقَ. فالمنقطِع في بطن الغار والملتَقم في بطن الحوت والعقلة في بطانة الأرحام كلهم في أجواف لا تحجب عنهم علم الله ورعايته. فسبحان من جعل الإشارة تشابه إشارة والعبارة تشابه عبارة.

الوجه الثاني : تشابه الحديث عن الطغيان

أجمل الله في استهلال القرآن ذكر الطغيان في قوله (كلا إن الإنسان ليطغى)

ومعلوم أن النبي ﷺ انطلق من الغار إلى أمنا خديجة رضي الله عنها يقول دثروني دثروني.

ويلحق به الأمر الإلهي والتكليف الرباني إلى فراشه. (يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر) (سورة المدثر 1-3) ثم ذكَّر الله للمرة الثانية بمن يطغى (أن رآه استغنى) بمال وولد. قال تعالى (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا* وَبَنِينَ شُهُودًا* وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا* ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ* كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا* سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا) (سورة المدثر 11-17)

وفي سورة القلم أيضا يفصل الله ما أجمله في قوله (ليطغى أن رآه استغنى) وقوله (أرأيت إن كان على الهدى) وقوله (كلا لا تطعه). تدبر ذلك في قوله تعالى (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ* فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ* وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ* وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ* هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ* مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ* أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ) (سورة القلم 7-14)

وفي سورة المزمل يتأكد هذا التفصيل أيضا في قول الله تعالى (وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً) (سورة المزمل 11)

ومن تشابه الحديث عن الطغيان أيضاً ما جاء مجملاً في سورة العلق من نهي الطاغية عبداً إذا صلى. ثم جاء مفصلاً مقارناً في مطالع التنزيل من سور القرآن. ففي سورة المدثر بيان عاقبة طرفي

الصراع بين الحق والباطل، بين المسلمين والمجرمين. وفي عاقبة المجرمين سيُسأل من ينهى عبدا إذا صلى: (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ) (سورة المدثر42- 43)

وفي سورة المزمل بيان التكليف بالصلاة بعد الامتناع عن طاعة من ينهى عنها. فبعد الأمر فيها بقيام الليل إلا قليلاً. يثني الله تعالى على اجتهاد النبي ﷺ وطائفةٍ معه في الصلاة. قال تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ)(سورة المزمل20)

قال تعالى:(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) (سورة الزمر 23) قال قتادة: الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف.

وقال الضحاك: { مَثَانِيَ } ترديد القول ليفهموا عن ربهم عز وجل.

زاد الحسن: تكون السورة فيها آية، وفي السورة الأخرى آية تشبهها.[1]

سادساً: تناسب الآيات في سورة العلق

التناسب والتناسق بين جُمَلِ الاستهلال من مستحسناته. وسورة العلق في تناسبها كالكلمة الواحدة.

قال السيوطي: (من وجوه إعجازه: مناسبة آياته وسوره وارتباط بعضها ببعض، حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني.)[2]

وسورة العلق كأنها جملة واحدة في ذلك السبك والتناسب البديع.

فيها يخاطب الله النبي الأمي أَنْ يقرأ مستعيناً بربه الذي خلق جميع الخلق، وخلق الإنسان من علق.[3]

والذي تكفل بالعلقة التي لا تنفك عن الحاجة حتى تكاملت في خلق الإنسان كفيل برعاية هذا الدين.

---

[1] انظر تفسير الطبري21/ 279

[2] معترك الأقران في إعجاز القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ) 43/1
دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى 1408 هـ - 1988 م

[3] قال الزمخشري (...وإما أن يقدّر ويراد خلق كل شيء ، فيتناول كل مخلوق ، لأنه مطلق ، فليس بعض المخلوقات أولى بتقديره من بعض . وقوله : '' خَلَقَ الإنسان '' تخصيص للإنسان بالذكر من بين ما يتناوله الخلق؛ لأن التنزيل إليه وهو أشرف ما على الأرض .) وقال: ('' الأكرم '' الذي له الكمال في زيادة كرمه على كل كرم ، ينعم على عباده النعم التي لا تحصى ، ...وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم...)
انظر الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ)، 4/ 776. دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الثالثة - 1407 هـ.

ولما تكرر لفظ الأمر وأجاب النبي الأمي ﷺ بقوله (ما أنا بقارئ) أُعيد الأمر مع التذكير بأن الذي خلق هو الذي علَّم الكاتبين بالقلم، وهو ربك فاقرأ مستعيناً بربك الذي خلق وعلَّم. فكل ما علِمه الكاتبون فإنما علِموه بتعليم الله إياهم.

وعلى منهج القرآن في المثاني[1] والمقارنة بين الأمر ومقابله ينتقل السياق ليقابل ويقارن بين الإنسان الذي أكرمه ربه بالعلم والتكليف والإنسان الذي ضل بطغيانه وجهالته، بين الإنسان الذي يتعلق بالله وهو يقوم بما أمره به ربه والإنسان الذي يرى أنه استغنى. وما من حاجة إلى بيان فقره وافتقاره وهو الذي كان علقة خلقه وعلمه ربه. وكيف يطغى مستغنياً بمال وولد من يرجع إلى ربه فرداً!

والصراع بين الحق والباطل من لوازم الطغيان. فلا بد من الثنية والمقابلة بين من طغى وضل عن الهدى وصار ينهى عبدا إذا صلى، ولا يأمر بالتقوى بل كذب وتولى كأنه لا يعلم أن الله يرى، يغتر بناديه وماذا يدفع عنه ناديه إذا دفعته الزبانية[2] كلا إنه لا يطاع في ما نهى عنه من السجود والصلاة. ثم تُختم المقابلة بين المُبْعَد المدفوع بدفع الزبانية ومن دعاه ربه أنْ يسجد لله ويقترب.

فسبحان الذي جعل أحسن الحديث متشابهاً تنتظم فيه المباني وتتسق فيه المعاني حتى كأنه كلمة واحدة.

فائدة ونتيجة مستخلصة من هذا التدبر في براعة الاستهلال:

إن من يتدبر الاستهلال بسورة العلق ثم ينظر في عمل السلف بهذا الدين وحمل رسالته ينكشف له اتساق أحكام الدين. فإذا كان الإسلام رسالة ابتعث الله بها خير أمة أخرجت للناس فلا عجب أن يكون الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام. ولا عجب أنه من خلف غازياً في أهله فقد غزا[3]

ولا عجب أن يكون مع المجاهدين من يسعى على ما يخلفه الشهداء والمجاهدون من الأرامل والأيتام[1]. ولا عجب في دين شرعه الله ليدفع به الطغيان أن يكون كافل اليتيم في الجنة مع النبي ﷺ كهاتين.[2]

---

[1] قال ابن كثير في تفسيره 94/7 : (وقال بعض العلماء: وُيرْوى عن سفيان بن عيينة معنى قوله: " مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ " أنّ سياقات القرآن تارةً تكونُ في معنى واحد، فهذا من المتشابه، وتارةً تكونُ بذكر الشيء وضده، كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة ثم صفة النار، وما أشبه هذا، فهذا من المثاني، كقوله تعالى: " إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ "، [الانفطار:14، 13]،)

[2] قال في الصحاح 5/ 2130: (الزَبْنُ: الدفعُ... وحربٌ زَبونٌ: تَزْبِنُ الناس، أي تَصدِمهم وتدفَعهم. والزَبانِيَة عند العرب: الشُرَط، وسمِّي بذلك بعضُ الملائكة لدفعهم أهلَ النار إليها)

3 روى البخاري في صحيحه 3/ 1045 بسنده عن زيد بن خالد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال (من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازيا في سبيل الله بخير فقد غزا)

وتمهيداً لبيان هذا الاتساق التناسب نقدم موجزاً نستكشف به إجمال رسالة الإسلام في فهم السلف.

فَهْمُ رسالة الإسلام عند سلفنا رضوان الله عليهم

تكفل الله لنبيه ﷺ بحفظ القرآن وبيانه قال تعالى: (إن علينا جمعه وقرآنه ثم إن علينا بيانه) (سورة القيامة17).وما فهمه سلفنا رضوان الله عليهم من دين الإسلام فمن تفهيم النبي ﷺ وتعليمه. قال تعالى(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (سورة آل عمران164)

ولما كان فهْمُ الصحابة من تفهيم النبي ﷺ وتعليمه حرص المسلمون على فَهْمِ السلف. فهُمُ الذين شاهدوا التنزيل وسمعوا البيان والتأويل. وفَهْمُهم هو العاصم من قاصمة الافتراق. وقد سبق أن أهل الكتاب قد افترقوا واختلفوا وأن الطائفة التي بقيت منهم لم تطق القيام بالقسط ، فلحقت بالجبال فتعبدت وترهبت. أما سلفنا رضوان الله عليهم فقد فهموا رسالة الإسلام. ولم يكن لهم أن ينقطعوا إلى الجبال ولا إلى الغار الذي تنزل فيه القرآن. ولم يؤثر عن النبي ﷺ ولم يؤثر عنهم حِرْصٌ على التحنث في الغار أصلاً. فهموا أن الإسلام رسالة ابتعثهم الله بها وجعلهم خير أمة أخرجت للناس. قال تعالى : (وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون)[3] وقال تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس) (سورة آل عمران 110). علموا أن الله ابتعثهم ليدفعوا الطغيان ويقوموا بالقسط. حتى اشتهرت مقالتهم على حدود الامبراطوريات عندما دخل ربعي بن عامر بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة على رستم فيسأله رستم: ما جاء بكم ؟ فقال: (الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله. قال: وما موعود الله ؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي).[4]

ولا عجب مع هذا الفهم أن الصحابة لما فُتحت مكة وبُنيت دولة الإسلام في المدينة لم ينقطعوا للعبادة في المسجد الحرام الذي تضاعف فيه الصلوات! لم يجاوروا النبي ﷺ في روضة من رياض الجنة!

---

[1] روى البخاري في صحيحه 5/ 2047 بسنده عن أبي هريرة قال : قال النبي صلى الله عليه و سلم (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل والصائم النهار)

[2] روى الإمام البخاري في صحيحه 5/ 2032 بسنده عن سهل رضي الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا) . وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئا.

[3] قال ابن الجوزي في زاد المسير: (قوله تعالى : " وإنه " يعني القرآن " لَذِكْرٌ لَكَ " أي : شَرَفٌ لَكَ بما أعطاكَ اللهُ " ولِقَوْمِكَ " في قومه ثلاثة أقوال : أحدها : العرب قاطبة .والثاني : قريش .والثالث : جميع من آمن به).

4انظر البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (المتوفى: 774هـ) 47/7. تحقيق: علي شيري. دار إحياء التراث العربي الطبعة: الأولى 1408، هـ - 1988

وهذه قبورهم في سائر الأمصار تدل على أنهم حملوا رسالة الإسلام وفتحوا بها نصف العالم في نصف قرن من الزمان.

وبالجملة نقول إن من يتدبر الاستهلال بسورة العلق لا بد أن يجد لكل حكم من أحكام هذا الدين تعلقاً بأصل نزول القرآن واستهلاله. فالجهاد في سبيل الله ذروة سنام هذا الدين الذي ابتعث الله به خير أمة أخرجت للناس لتدفع الطغيان وتحرر العباد من عبادة العبادة إلى عبادة رب العباد. والإحسان إلى الجار والأرحام مثلاً أمر يعود إلى هذا الأصل ويعين على تحقيقه. لأن الله الذي ابتعث الأمة بهذه الرسالة رصَّ صفوفها وَوَصَل أفرادها بما أمر الله به أن يوصل من روابط الأسرة والأرحام والأخوة والجوار. حتى إذا وصل المؤمنون ما أمر الله به أن يوصل كانوا كالبنيان المرصوص والجسد الواحد. كل فرد منهم يتحصن في حصون داخل حصون. من حصن الأسرة إلى حصن الأرحام والعشيرة الذي يحيط به، إلى حصن الجوار والأخوة. بنيان مرصوص وجسد واحد. ومن نقض وقطع ما أمر الله به أن يوصل فماذا أبقى لنفسه من عمل مقبول؟

روى الحاكم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فلانة تصلي الليل وتصوم النهار وفي لسانها شيء يؤذي جيرانها سليطة ، قال : « لا خير فيها هي في النار » وقيل له : إن فلانة تصلي المكتوبة وتصوم رمضان وتتصدق بالأثوار[1] وليس لها شيء غيره ولا تؤذي أحدا قال : « هي في الجنة » قال الحاكم« هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».[2]

إن هذه المقارنة بين مآل المرأتين لا يتعجب منها من يعرضها على استهلال القرآن وإعلان رسالة الإسلام. ولا يتعجب أيضاً من حرمان قاطع الرحم من قبول عمله.

وروى الإمام أحمد بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ تُعْرَضُ كُلَّ خَمِيسٍ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، فَلَا يُقْبَلُ عَمَلُ قَاطِعِ رَحِمٍ "[3]

وأوصى عمر بن عبد العزيز أحد مجالسيه فقال: إني أوصيك فاحفظ عني لا تصاف قاطع رحم، فإن الله عز وجل لعنه في آيتين من كتاب الله تبارك وتعالى : "وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ"

---

[1](الأثوار جَمْع ثَور وهي قِطْعة من الأقِط وهو لَبَن جامد مُسْتَحْجِر) انظر النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري. 653/1. المكتبة العلمية - بيروت ، 1399هـ - 1979م تحقيق : طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي.

[2] المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله المعروف بابن البيع(405هـ)
تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية – بيروت. 183/4

3مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (المتوفى: 241هـ) 191/16. تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون. مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م.

(سورة الرعد 25) " فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذي لعنهم الله فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ * أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا")[1](سورة محمد ﷺ 23-24)

إن دفع الطغيان في الأرض يقتضي أن يجتمع في حملة الرسالة وصفان متقابلان، شدة في موضع ورحمة في مقابله. (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) (سورة الفتح 29)

وقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ) (سورة المائدة 54)

وإذا بلغنا أن البغض بين المسلمين يحلق الدين فلن نستبعد ولن نستغرب إذا رددنا هذا الحكم إلى الاستهلال وأصل رسالة الإسلام, فالحقد والبغض بين الإخوة لا يليق بالجسد الواحد والبنيان المرصوص. يقول النبي ﷺ (دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الْحَسَدُ، وَالْبَغْضَاءُ، وَالْبَغْضَاءُ: هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ)[2]

ولا يتسع المقال هنا إلا لما سبق من المثال. لكنا نقول إن العقائد والعبادات والأخلاق التي دعا إليها الإسلام لا بد أن تعود إلى استهلالها بسورة العلق. بل الكون وما فيه متعلق بالحقيقة العظمى فيه أنه لا إله إلا الله الذي تفرد بخَلْقِه وتدبيره وهو سبحانه الذي تفرد باستحقاق عبادته وطاعته والسجود له.

وهذا مضمون سورة العلق التي استهل الله بها البعثة بكمال الدين وتمام النعمة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين

[1] انظر مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها، أبو بكر محمد بن جعفر الخرائطي(المتوفى: 327هـ) 294 . تحقيق: أيمن عبد الجابر البحيري. دار الآفاق العربية، القاهرة. الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1999 م.

[2] رواه الإمام أحمد في مسنده 43/3، **تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، 1421 هـ - 2001 م**